عدي بن الرقاع العاملي

للأستاذ خليل مردم بك

حياته

هو ابو داود عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع العاملي من بني عاملة . وهم من عرب اليمن ينتهي نسبهم الى كهلان ثم الى قحطان نزحوا عن اليمن الى الشام مع من نزح من اليمانيين قبل الاسلام . يقول الهمداني في صفة جزيرة العرب : « ديار عاملة مجاورة للاردن وجبل عاملة مشرف على عكا من قبل البحر يليها ويطل على الاردن » . ويقول أيضاً « وأما عاملة فهي في جبلها مشرفة على طبرية الى نحو البحر » . ويقول ابن خلدون في كتاب العبر : « إن بني عاملة بطن متسع ومواطنهم ببرية الشام » ويقول القلقشندي في صبح الاعشى : « ان بجبال عاملة من بلاد الشام الجم الغفير من بني عاملة » . ونسب الناس عدياً الى الرقاع وهو جد جده لشهرته .

وقد زعم بعض النساب أن عاملة من معد بن عدنان وليست من قحطان ، ولكن عدياً نفسه يتولى الرد عليهم بقوله :

قحطان والدنا الذي ندعى له وأبو خزيمة خندق بن نزارِ

وفي لغة عدي أيضاً ما يصحح دعواه قال :

فانك والشعر ذو تزجي قوافيه كمبتغي الصيد في عريسة الاسدِ

يريد « الشعر الذي تزجي قوافيه » وذو بمعنى الذي في لغة طيء ، وطيء من قحطان .

نحن لا نعلم على التحقيق في أي سنة ولد عدي ، ولكن يغلب على

الظن أن يكون مولده حوالي العقد الرابع من القرن الاول ، لان من أول ما روي عنه من الشعر أبياتا قالها في زمن يزيد بن معاوية وأنشده اياها . ويزيد بويع بالخلافة سنة ستين وتوفي سنة أربع وستين . فلا نكون مخطئين إذا قدرنا أن عديا كان وقتئذ شاباً .

اما منزله فقد كان بدمشق كما نص على ذلك صاحب الاغاني . وقال أيضا « هو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم » ولقبه ابن دريد في كتاب الاشتقاق بشاعر أهل الشام . وعده محمد بن سلام الجمحي في الطبقة السابعة من شعراء الاسلام .

نشأ عدي في دمشق عاصمة الدولة الاموية ، وكان هواه مع بني أمية « يمدح أحياءهم ويرثي أمواتهم » كما قال الوليد بن عبد الملك ، ولا يقف عند هذا الحد ، بل يرى رأيهم ويقول بقولهم ، ويؤيد سياستهم ويتحمس لهم ، وهو سلم لمن أطاعهم وحرب على من عصاهم ، ينصرهم بلسانه وبسيفه لا عن رغبة بل عن رأي وعقيدة . قال يمدح عبد الملك ابن مروان بعد أن ظفر في الوقعة التي كانت بينه وبين مصعب بن الزبير ، وانتهت بمقتل مصعب بدير الجاثليق .

لعمري لقد اصحرت خيلنا ... بأكناف دجلة للمصعب
فقدّمنا واضحٌ وجهه ... كريم الضرائب والمنصب
أعين بنا ونصرنا به ... ومن ينصر الله لم يُغلب
فداؤك أمي وأبناؤها ... وان شئت زدت عليها أبي
وما قلتها رهبةً إنما ... يحل العقاب على المذنب
اذا شئت نازلت مستقتلاً ... أزاحم كالجمل الاجرب
فمن يك منا بيتٌ آمنا ... ومن يك من غيرنا يهرب

أفلا ترى صدق اللهجة في قوله « وما قلتها رهبةً .... » فضلاً عن بقية الابيات التي تنبيء بان الشاعر حارب في جيش عبد الملك .

فلما توفي عبد الملك وخلفه ابنه الوليد اختص عدي به ومدحه بقصائد من خير الشعر بقي منها قصيدتان مطلع الاولى :

عرف الديار توهماً فاعتادها ... من بعد ما شمل البلى أبلادها

ومطلع الثانية :

طار الكرى وألمّ الهم فاكتنعا ... وحيل بيني وبين النوم فامتنعا

وغيرهما من بقايا القصائد التي خلد بها مآثره واشاد باعماله العظيمة ، كما مدح ابنه عمر بن الوليد فقربه الوليد وقدمه وكان يدعوه « شاعرنا » . ولئن أحب عدي بني أمية عامة ، فلقد آثر الوليد منهم خاصة وأخلص في حبه كثيراً حتى تمنى أن يموت بحياته ، فقال من قصيدة يمدحه بها :

عدنا بذي العرش أن نحيا ونفقده ... وأن نكون لراع بعده تبعا

ولكن هذه الامنية لم تتحقق ، فقد توفي الوليد وبويع بعده أخوه سليمان ابن عبد الملك ، فاستقدم عديا وعاتبه على قوله هذا ووصله ، واجتمع مرة عنده مع الفرزدق وجرير وكثيّر . وتوفي سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز وعدي حي وقد ذكره بشعره إذ يقول :

لولا اختياري أبا حفص وطاعته ... كاد الهوى من غداة البين يعتزمُ

ولم يذكر صاحب الاغاني ولا ابن عساكر في التاريخ الكبير ولا ابن سلام الجمحي في طبقات الشعراء ولا ابن قتيبة في الشعر والشعراء خبراً لعدي بعد عمر بن عبد العزيز الذي بويع بالخلافة سنة تسع وتسعين وتوفي سنة احدى ومائة ، فلا يبعد أن يكون عدي توفي في خلافته .

وكان تقدمه عند بني أمية أثار حسد الشعراء له ، فقد تعرض له جرير في مجلس الوليد بن عبد الملك فناقضه عدي ثم لم تتم بينهما مهاجاة لان الوليد منع جريراً من هجائه ، فهجاه جرير تعريضاً ولم يصرح باسمه خوفاً من الوليد . وهجاه الراعي فرد عليه عدي . وكان كثيّر يبغضه لانه كان يبلغه عن عدي أنه يطعن على شعره .

وكان له بنت شاعرة اسمها سلمى ، فاتاه ناس من الشعراء ليهانئوه وكان غائباً ، فسمعت بنته وهي صغيرة فخرجت اليهم وقالت :

تجمعتم من كل أوب وبلدة على واحد لا زلتم قيرن واحد

فلحقتهم . ويستدل من كنيته على أنه كان له ابن اسمه داود وسماه بعضهم دواداً ولا نعرف من خبره شيئاً . كما أن قوله :

« فداؤك أمي وأبناؤها »

ينبيء بان له اخوة خفيت علينا اسماؤهم .

وله ديوان شعر ذكره ابن النديم في كتاب الفهرست . وذكر عبد القادر البغدادي في خزانة الادب ج ١ ص ١٠ أنه اطلع على ديوان عدي بن الرقاع وعده في جملة الدواوين التي اعتمد عليها في تأليف الخزانة . ولكن لا يعلم الآن مكان ذلك الديوان .

صفته وأخلاقه

لم ينص أحد ممن ذكر ابن الرقاع على شيء من صفته غير ابن عساكر ، فقد ذكر أنه كان أبرص . ويصفه لنا عبيد الراعي الشاعر بأنه قصير أوقص إذ يهجوه ويقول :

جنادفٌ لاحقٌ بالرأس منكبه كأنه كودنٌ يوشى بكلاّب[1]

من معشرٍ كحلت باللؤم اعينهم فقد الأكف لئام غير صيّاب

والله يعلم مبلغ هذه الصورة من الصحة . على أن بعض أخباره التي أوردها صاحب الاغاني وابن عساكر مع البقية الباقية من شعره يمكن ان تصف لنا شيئاً من نفسه واخلاقه .

كان عدي يفخر بما يفخر به فتيان العرب : الحب والشجاعة والفصاحة وفي ذلك يقول :

(١) جنادف : قصير أراد أنه أوقص ، والكودن : البرذون ، ويوشى : يستحث ، والكلاب للبهاز ، وأفقد الكف : مالها ، والصيّاب : السادة .

فلقد ثنيت يد الفتاة وسادةً لي جاعلاً يسري يديّ وسادها

وأصاحب الجيش العرمرم فارساً في الخيل أشهد كرها وطرادها

وقصيدةٍ قد بت أجمع بينها حتى أقوّم ميلها وسنادها

وكان وافياً لأصحابه في سرائهم وضرائهم لا ينحرف عنهم بانحراف الزمان والسلطان ، عزل الوليد بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن عن الاردن وضربه وحلقه وأقامه للناس ، وقال للمتوكلين به من أتاه متوجعاً واثنى عليه فائتوني به ، فأتى عدي بن الرقاع وكان عبيدة اليه محسناً فوقف عليه وأنشأ يقول :

فما عزلوك مسبوقاً ولكن الى الخيرات سباقاً جوادا

وكنت اخي وما ولدتك امي وصولاً باذلاً لي مستزادا

وقد هيضت لنكبتك القدامى كذاك الله يفعل ما أرادا

فوثب المتوكلون به اليه فأدخلوه الى الوليد واخبروه بما جرى ، فتغيظ عليه الوليد وقال له أتمدح رجلاً فعلت به ما فعلت ؟ فقال يا أمير المؤمنين انه كان الي محسناً ولي مؤثراً وبي براً ففي أي وقت كنت أكافئه بعد هذا اليوم ؟ فقال صدقت وكرمت فقد عفوت عنك وعنه فلك فخذه وانصرف ، وانصرف به الى منزله .

وكان شديد العارضة حاضر الجواب ، دخل جرير على الوليد بن عبد الملك وعنده عدي بن الرقاع ، فقال الوليد اتعرف هذا ؟ فقال لا يا امير المؤمنين ، فمن هو ؟ قال هذا عدي بن الرقاع . فقال جرير : فشر الثياب الرقاع ، فممن هو ؟ قال من عاملة . قال جرير : أمن التي قال الله تعالى فيها « عاملةٌ ناصبةٌ ، تصلى ناراً حامية » ثم قال :

يقصّر باع العاملي عن الندى ولكن = العاملي طويلُ

فقال له عدي :

أأمك كانت اخبرتك بطوله أم انت امرؤ لم تدر كيف تقولُ

فقال جرير : لا بل أدري كيف أقول . فقال الوليد والله ليركبنك

شاعرنا ومادحنا والراثي لأمواتنا ، تقول هذه المقالة ؟ والله لئن هجوته لأفعلن ولأفعلن . فلم يصرح جرير بهجائه وعرض فقال قصيدته التي أولها :

حي الهدملة من ذات المواعيس

وقال فيها يعرض به :

أقصر فان نزاراً لن يفاخرهم ... فرعٌ لئيمٌ وأصلٌ غير مغروسِ
وابن اللبون اذا ما لز في قرنٍ ... لم يستطع صولة البزل القناعيس
قد جربت عركتي في كل معترك ... غلب الاسود فما بال الضغابيس

وكان عدي مدح الوليد بن عبد الملك بقوله :

عذنا بذي العرش أن نحيا ونفقده ... وأن نكون لراع بعـــده تبعا

فلما توفي الوليد وبويع بالخلافة لسليمان بن عبد الملك ، استدعى عدياً ، فلما دخل عليه قال : ان كنت لكارهاً لخلافتي . قال وكيف ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال حين تقول في مدحة الوليد :

عذنا بذي العرش ان نبقى ونفقده ... وان نكون لراعٍ بعده تبعا

قال ابن الرقاع والله ما هكذا قلت يا امير المؤمنين ولكني قلت :

عذنا بذي العرش ان نبقى ونفقدهم ... وان نكون لراعٍ بعدهم تبعا

قال او كذلك ؟ قال نعم . فوصله واذن له بالانصراف .

ومن شعره ما يدل على انه كان تيّاهاً كثير الاعجاب والذهاب بنفسه ، قال من قصيدة :

وعلمت حتى ما اسائل واحداً ... عن علم واحدةٍ لكي ازدادها

واتفق ان عديا لما انشد الوليد بن عبد الملك القصيدة التي منها هذا البيت ، كان عنده كثيّر ، فلما انشد هذا البيت قال كثيّر كذبت ورب البيت الحرام ، فليمتحنك امير المؤمنين بان يسألك عن صغار الامور دون كبارها حتى يتبين جهلك وما كنت قط احمق منك الآن حيث تظن هذا بنفسك . فضحك الوليد ومن حضر .

وروي عن محمد بن المنجم أنه قال : ما احد ذكر لي فأحببت ان

اراه فاذا رأيته امرت بصفعه الا عدي بن الرقاع قيل : ولم ذلك ؟ قال لقوله :

وعلمت حتى ما اسائل واحداً ... عن علم واحدةٍ لكي ازدادها

فكنت اعرض عليه اصناف العلوم فكلما مر به شيء ولا يحسنه امرت بصفعه .

وقد سمى جرير عدياً الشاعر المغرور حين عرض به فقال :

اني اذا الشاعر المغرور جربني ... جارٌ لقبرٍ على مران مرموسِ

ولكنه مع هذا الاعجاب بنفسه لم يقو على مصاولة جرير بل خافه ، فقد روي أنه لما اجتمع بجرير عند الوليد بن عبد الملك وهدده جرير بالهجاء وثب عدي إلى رجل الوليد فقبلها وقال اجرني منه .

وإذا صح أن تكون الصفات التي ينعت بها الشاعر نفسه دليلاً على أخلاقه جاز لنا أن نقول إن عدياً كان جلداً لا يتضعضع لريب الدهر لقوله :

ونكبة لو رمى الرامي بها حجراً ... أصم من يابس الصوان لانصدعا
أتت عليّ فلم أنزع لها سلبي ... ولا استكنتُ لها شكوى ولا جزعا

وإنه كان حمولاً على نفسه غير سؤول لقوله :

فسترت عيب معيشتي بتكرمٍ ... وأتيت في سعة النعيم سدادها

ومهما يكن من مبالغة في هذه الصفات فانها تضرب بعرق إلى الحقيقة في نفس الشاعر ، أما هواه السياسي فقد كان مع بني أمية كما تقدم ذكر ذلك في حياته .

شعره

عاصر عدي بن الرقاع سبعة خلفاء من بني أمية ، وكان مقدماً عندهم لان مذهبه السياسي أموي ، ولا عمل له غير الشعر ، وقد حدث في زمانهم من الاحداث ما يبعث الشعر في نفس عدي ، فمن المفروض أن يكون قال كثيراً من الشعر . وقد ذكر له ابن النديم في كتاب الفهرست ديواناً ، ولكن الزمان لم يبق من شعره إلا مقداراً يسيراً مشتتاً في كتب اللغة

والأدب والتاريخ وتقويم البلدان ، من ذلك أبيات قالها في الوقعة التي ظفر بها عبد الملك بن مروان وانتهت بقتل مصعب بن الزبير ، وقصيدتان مدح بهما الوليد بن عبد الملك سبقت الاشارة اليها ، وأبيات مدح بها عمر بن الوليد ، ومقطوعات في معانٍ مختلفة كالوصف والغزل والأدب والفخر والمدح والهجاء والتهنئة ، وكلها لا تبلغ أربعمائة بيت ، وهو مقدار يسير لا يعطينا عن الشاعر صورة تامة واضحة ، ولكنا نحاول أن ندرس هذه البقية من شعره إلى أن يجود الزمان بشيء مما ضن به علينا .

* * *

عدي بن الرقاع شاعر إسلامي ، والشعراء الإسلاميون عامة كالفرزدق وجرير والأخطل وكثير وجميل والراعي ونصيب والقطامي ، — وعدي واحدٌ منهم — أعذب لغة وأحسن ديباجة وأكثر طلاوة من شعراء الجاهلية ، وذلك لتأثرهم بلغة القرآن وحسن انسجامه وسمو أسلوبه ، دع ما انفسح أمامهم من ميادين الحياة الإسلامية في مثلها العليا من دين وملك لم يكونا في أيام الجاهلية .

وربما كان عدي من أكثر هؤلاء الشعراء انسجاماً وتثقيفاً لشعره وتهذيباً لقوافيه وهو الذي يخبرنا كيف كان يحبر قصائده ويصقلها ويعود عليها بالتهذيب إذ يقول :

وقصيدةٍ قد بتُّ أجمع بينها ... حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قناته ... حتى يقيم ثقافه منآدها

وهو في فنه صانع ماهر لا يكره الشعر إكراهاً ولا يقتسر القوافي غصباً ولقد أتيح له من بارع الأبيات في انسجامها ما ذهب مثلا كقوله :

صلى الاله على امرىء ودعته ... وأتم نعمته عليه وزادها

فلقد صار عجز هذا البيت رسماً من رسوم الكتاب في رسائلهم ، قال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني في فصل دعاء المكاتبة : « فاما قولهم وأتم نعمته عليه وزاد في إحسانه إليه ، فهو من قول عدي بن الرقاع :

صلى الاله ... الخ

وكقوله :

فلو قبل مبكاها بكيت صبابةً ... بسعدي شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا ... بكاها فقلت الفضل للمتقدم

وكم تمثل الناس بهذين البيتين

* * *

قالوا إن عدياً من حاضرة الشعراء لا من باديتهم ، وانه كان أثيراً مقدماً عند بني أمية ، ومعنى ذلك أنه من دعاة سياستهم لا من الشعراء الذين يبيعون الشعر بيعاً . فهل لذلك أثر في شعره ؟ نعم ان اطراد شعره وتساوق أبياته وتلاحمها وتهذيب قوافيه وحسن صياغته وما في تشبيهاته من معان حضرية وفي قصائده من ماء وظل ونعيم كقوله :

فقد أبيت أراعي الخود راقدةً ... على الوسائد مسروراً بها ولما

وقوله :

ومما شجاني أنني كنت نائماً ... أعلل من برد الكرى بالتنسم
إلى أن بكت ورقاء في غصن أيكة ... تردد مبكاها بحسن الترنم

أثرٌ من آثار نعيم العيش ورفاهته ، فان شعراء البادية يتوسدون في باديتهم أعضاد المطايا ، وعدي يراعي الخود على الوسائد ، ويعلل في ظلال الأيك بدمشق بنوم هنيء تترنم من فوقه الحمائم .

على أن حسن تأتيه في مدحه لبني أمية خلفائهم وأمرائهم أدل على لباقته وتحضره ، فهو شاعر مجيد من شعراء القصور يحسن القيام برسوم

الخلفاء والأمراء في مخاطبتهم على الوجه الأكمل ، ويمدحهم بما هو أشبه بالدعاية السياسية ، ويضفي عليهم رداء الجلال والعظمة ، فاسمعه يقول في مدح الوليد بن عبد الملك :

صلى الذي الصلوات الطيبات له ... والمؤمنون إذا ما جمعوا الجمعا
على الذي سبق الأقوام ضاحيةً ... بالأجر والحمد حتى صاحباه معا
هو الذي جمع الرحمن أمتـه ... على يديه وكانوا قبـله شيعا
عذنا بذي العرش أن نحيا ونفقده ... وان نكون لراع بعده تبعا
إن الوليـد أمير المؤمنين له ... ملك عليه أعان الله فارتفعا

ويقول في مدحه أيضاً :

صلى الاله على امرىء ودعته ... وأتم نعمته عليـه وزادها
أو لا ترى أن البرية كلهـا ... ألقت خزائمهـا اليه فقادها
ولقد أراد الله إذ ولاّكهـا ... من أمة إصلاحهـا ورشادها
أعمرت أرض المسلمين فأقبلت ... وكففت عنها من يروم فسادها
وأصبت في أرض العدو مصيبةً ... عمت أقاصي غورهـا ونجادها
ظفراً ونصراً ما تناول مثـله ... أحد من الخلفاء كان أرادها
فاذا نشرت له الثنـاء وجدته ... جمع المكارم طرفها وتلادها
تأتيـه أسلاب الأعزة عنوةً ... قسراً ويجمع للحروب عتادها

فهل ترى نمطاً أليق بمخاطبة الخلفاء من هـذا النمط ؟ تحية الخليفة بالصلاة عليه ، وتعظيم للأمر المضطلع به ، وإشادة بعظائم أعمـاله في سبيل الأمة ، وإخلاص في محبته وتأييد للملك وعرشه . بل كيف ترى الفرق بين هذا الأسلوب الحضري وبين أسلوب بعض بادية الشعراء الذين اعتـادوا أن يصفوا الممدوح بالحية الذكر ، ويمدحوه بتأريث النيران وعظم القدور ونحر الجزور ودعوة الجفلى والنداء على الطعام وكثرة الهبات . أو أن يصفوا عناء سفرهم إلى الخليفة وما لاقوه من المشاق وما هم عليـه وعيالهم

الذين خلفوهم وراءهم من الفاقة ليزيد الخليفة في رفدهم . هـذا جرير أطبع أهل زمانه على الشعر لم يستقم له في مدح الخلفاء ذلك الأسلوب الذي استقام لعدي ، فانه في مدحه لعمر بن عبد العزيز أشبه بالمستجدي منه بالشاعر قال :

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت ... أم قد كفاني الذي بلغت من خبري
كم بالمواسم من شعثاء أرملةٍ ... ومن يتيمٍ ضعيف الصوت والنظر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به ... مساً من الجن أو خبلاً من البشر
ممن يعدك تكفي فقد والده ... كالفرخ في العش لم يدرج ولم يطر
خليفة الله ماذا تأمرون بنـا ... لسنا إليكم ولا في دار منتظر
لتنعش اليوم ريثي ثم تنهضني ... وتنزل اليسر مني موضع العسر

وما ذلك إلا لبداوة جرير وبعـده عن حياة الحاضرة ، على أنه بحر لا ساحل له .

ولعدي أيضاً أبيات يمدح بها أحد أمراء بني أمية وهو عمر بن الوليد ابن عبد الملك ، تدل على لباقة وحسن تأت لو قالها أحد شعراء القصور في هذه الأيام لأثارت إعجاب الناس لما فيها من حذق ولباقة وهي :

وإذا نظرت إلى أميري زادني ... ضنـاً به نظري إلى الأمراء
تسمو العيون إليه حين يرونه ... كالبـدر فرّج بهمة الظلمـاء
والقوم أشباهٌ وبين حلومهم ... بونٌ كذاك تفاضل الأشياء
كالبرق منه وابلٌ متتـابعٌ ... جَوْدٌ وآخر ما يجـود بماء
والأصل ينبت فرعه متأثلاً ... والكف ليس بنائهـا بسواء
بل ما رأيت جبال أرض تستوي ... فيما غشيتُ ولا نجوم سماء
والمرء يورث مجـده أبناءه ... ويموت آخر وهو في الأحياء

وفي شعر عدي عدا النعومة الحضرية مفردات ومعان تدل على الحضارة كذكر الكتاب والقلم والدواة والبريد والتجار كقوله :

تزجي أغن كأن ابرة روقه قلمٌ أصاب من الدواة مدادها

وكقوله :

لمن رسم دارٍ كالكتاب المنمنم بمنعرج الوادي فويق المهزَّم

وقوله :

ونحن بأرض قلَّما يجشم السرى بها العربيات الحسان الحرائرُ
كثيرٌ بها الأعداء يحسر دونها بريد الإمام المستحث المثابر

وقوله :

مستطيرٌ كأنه سابريٌّ عند تجر منشّرٌ وملاءُ

على أن أثر البادية ظاهر جلي في شعره أيضاً ، فأنت تدرك به روح البادية كما تبصر أفياء الحاضرة ، فتراه يصف المطايا وصفاً يكاد ينفرد به من حيث الدقة والاستقصاء ، كما يصف المفاوز وما فيها من أعلام طامسة وأطلال دارسة ووحوش راتعة ، ولكنه ينتزع لها تشبيهات مما شاهده في الحاضرة ، متانة رصف وقوة أسر وجزالة تركيب ، ولعل عدم انقطاعه عن البادية هو الذي كفل لشعره السلامة مما يعتري كثيراً من شعراء الحواضر ويسميه النقاد باللين ، ويعنون به الرقة التي تفضي إلى الإسفاف ، ونجد هذا اللين أحياناً في شعر عدي بن زيد العبادي ، وأمية بن أبي الصلت ، وابن قيس الرقيات ، والوليد بن يزيد ، وكلهم حضريون .

وهكذا فشعر عدي بما فيه من روح البادية ورونق الحاضرة عربي في جزالته ورصفه وخياله ومعانيه وتفكيره ونظراته ، لا تجد فيه أثراً من ثقافة أجنبية شأن جميع الشعراء الاسلاميين ، لأن الحياة بجميع مظاهرها أيام بني أمية كانت عربية إسلامية .

لقد أحسن عدي في الوصف فانه وصف الطيف والغيث والبرق والليل

والحر والمطايا والظباء والوحوش في حركاتها وما تثيره من الغبار في عدوها .

قال صاحب الأغاني ، قال عبدالله بن مسلم : « ومما ينفرد به (عدي) ويقدم فيه وصف المطية فإنه كان من أوصف الشعراء لها »

قال في الخيل :

يخرجن من فرجات النقع دامية كأن آذانها أطراف أقلام

وقال ابن قتيبة : عدي أحسن من وصف الظبية وولدها .

وقال جرير : سمعت عدي بن الرقاع ينشد الوليد بن عبد الملك قصيدته التي أولها :

عرف الديار توهماً فاعتادها

فحسدته على أبيات منها ، حتى أنشد في صفة الظبية والغزال :

تزجي أغنَّ كأن إبرة روقه

فرحمته من هذا التشبيه ، وقلت بأي شيء يشبهه ترى ؟ فلما قال :

قلم أصاب من الدواة مدادها

رحمت نفسي منه وحالت الرحمة حسداً .

وقال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني « وأما قول عدي في صفة قرن الظبي فليس له شبيه »

ولم يقل أحد كما قال عدي يصف حماري الوحش في عدوهما وما يثيرانه من الغبار :

يتعاوران من الغبار ملاءةً غبراء محكمةً هما نسجاها
تطوى إذا علوا مكاناً جاسياً وإذا السنابك أسهلت نشراها

وإلى ذلك أشار أبو تمام الطائي بقوله :

تثير عجاجةً في كل أرضٍ يهم بها عدي بن الرقاع

قال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني بعد أن أورد بيتي عدي :

« لا أعرف في صفة الغبار أحسن ولا أتم من هذا »

وعدي في غزله محسن رقيق عذب يغلب عليه الوصف الدقيق في المعاني الغزلية ، من ذلك وصف تفتير العينين ولم يقل أحد مثله . قال نوح بن جرير يا أبت من أنسب الشعراء ؟ قال أتعني ما قلت ؟ قال إني لست أريد من شعرك انما أريد من شعر غيرك ، قال ابن الرقاع في قوله :

لولا الحياء وان رأسي قد عسا ... فيه المشيب لزرت أم القاسم

وكأنها بين النساء أعارها ... عينيه أحور من جآذر جاسم

وسنان أقصده النعاس فرنّقت ... في عينه سِنةٌ وليس بنائم

ثم قال لي ما كان يبالي ان لم يقل بعدها شيئاً .

وهذه الأبيات مما يتغنى به . قال محمد بن عباد كنت عند أبي عمرو وعنده رجل اعرابي كأنه مدني فقرأت عليه أبيات عدي : « لولا الحياء وان رأسي قد عسا » فقال أبو عمرو أحسن والله ، فقال الاعرابي أما والله لو رأيته مشبوحاً بين أربعة وقضبان الدفلى تأخذه لكنت له أشد استحساناً يعني إذا كان يغنى على العود .

قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في كتاب الوساطة :

« وأما قول عدي « وسنان . . . » فقد زاد به على كل من تقدم وسبق بفضله جميع من تأخر ولو قلت اقتطع هذا المعنى فصار له وحظر على الشعراء ادعاء الشرك فيه لما أراني بعدت عن الحق ولا جانبت الصدق »

وقال ابو هلال العسكري في ديوان المعاني : قال أبو عمرو لأصحابه ما أحسن ما قيل في العيون ؟ قال بعضهم قول جرير

إن العيون التي في طرفها حورٌ ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله أركانا

وقال آخر قول ذي الرمة :

وعينان قال الله كونا فكانتا ... فعولان بالألباب ما تفعل الخمرُ

وقال آخر بل قوله

يذكرني ميا من الظبي عينه ... مراراً وفاها الأقحوان المنورُ

فقال أبو عمرو أحسن من هذا كله قول عدي بن الرقاع العاملي :

وكأنها بين النساء أعارها ... عينيه أحور من جآذر جاسم

وسنان أقصده النعاس فرنّقت ... في عينه سنةٌ وليس بنائم

ومن غزله العذب قوله :

صادتك أخت بني لؤي إذ رمت ... وأصاب سهمك إذ رميت سواها

وأعارها الحدثان منك مودةً ... وأعير غيرك ودها وهواها

بيضاء كستلب الرجال عقولهم ... عظمت روادفها ودق حشاها

يا شوق ما بك يوم بان حدوجهم ... من ذي الموبقع غدوةً فرآها

وقوله :

ونبه شوقي بعد ما كان نائماً ... هتوف الدجى مشغوفةٌ بالترنم

بكت شجوها عند الضحى فتساجمت ... اليها دموع العين من كل مسجم

فلو قبل مبكاها بكيت صبابةً ... بسعدي شفيت النفس قبل التندم

ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا ... بكاها فقلت الفضل للمتقدم

وله نظرات في الأدب والحكمة تغلب عليها السذاجة البريئة ، زين بها بعض قصائده في مناسبات شتى كالأبيات التي مدح بها عمر بن الوليد ابن عبد الملك وقد سبق ايرادها وغيرها كقوله :

أخبر النفس انما الناس كالعيـ ... ـدان من بين نابٍ وهشيم

وقوله :

والدهر يفرق بين كل جماعة ... ويلف بين تباعدٍ وتناء

وقوله :

والمرء ليس وان طالت معيشته ... يرى الذي هو لاقٍ قبل أن يقعا

وقوله :

إني إذا ما لم تصلني خلتي وتباعدت عني اغتفرت بعادها

ومن المعاني التي نظم بها عدي التهنئة حين هنأ عبد العزيز بن الوليد ابن عبد الملك بزواجه قال :

قمر السماء وشمسها اجتمعا بالسعد ما غابا وما طلعا

ما وارت الأستار مثلها فيمن رأيناه ومن سمعا

دام السرور له بها ولها وتهنآ طول الحياة معا

وهو معنى لم تقل الجاهلية فيه .

* * *

أثر الشام في شعر عدي

الشعر العربي ابن البادية ، تعبق منه رائحة الشيح والقيصوم في بوادي الحجاز ونجد وهضاب اليمن وظلال الشام وشواطيء دجلة وسقي الفرات ، والشاعر العربي لعهد عدي يعتد روح البادية عمود الشعر وقوامه ، ولكن بالرغم من ذلك فان أثر الشام واضح جلي في شعر عدي ، فلقد ذكر مدنها وحواضرها وقراها وربوعها ورياضها وظلالها وأنهارها ومياهها وجبالها وباديتها ، كما ذكر آرامها ووحوشها وطيورها ، مثل حمص وخناصرة والأحص وجلسم والمرج والمناظر والأزرق واعامق وفلسطين وبيت رأس والاردن والغريفة وغيرها ، وطبيعة الشام المنسجمة الساحرة في أرضها وسمائها ، وما في دمشق يومئذ من جلال الخلافة وعظمة الملك ، أوحى إلى عدي كثيراً من ذلك الانسجام واللباقة والتثقيف في شعره ، حتى صار يعتد ذلك فناً خاصاً بالشاميين لا يجيده غيرهم ، ولذلك كان عدي ينتقد كثيّر عزة ويغمزه ويطعن على شعره ويقول « هذا شعر حجازي مقرور إذا أصابه قر الشام جمد وهلك » وهكذا فعدي فخور بعربيته وشاميته معترف بما توحيه طبيعة الشام الساحرة الى الشاعر العربي حتى يرى نفسه فوق شعراء العربية .

ولقد وجد عدي في بادية الشام مجالاً لرياضة الشعر على النحو الجاهلي في بوادي نجد والحجاز ، فاعتسف مفاوزها ووقف على الرسوم وبكى الاطلال ووصف الآل وحن إلى آكامها وداراتها وربوعها وشبب بغزلانها واهتاج للمع بروقها .

وهذه أمثلة من شعره يلوح عليها الطابع الشامي :

منعوا الثغرة التي بين حمص والكهاتين ليس فيها عريبُ

* * *

وإذا الربيع تثابت أنواؤه فسقى خناصرة الأحص فجادها

* * *

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم

والغريب أن القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة على نفوذ بصره وصحة أحكامه في النقد ، أساء فهم هذا البيت ، فظن أن ذكر جاسم من حشو الكلام لا فائدة في ذكره ، فقال بعد أن قرظ البيت : « وقد رأيت ظباء جاسم فلم أرها الا كغيرها من الظباء ، وقد يختلف خلق الظباء وألوانها باختلاف المنشأ والمرتع ، وأما العيون فقلّ أن تختلف لذلك ، وفاته أن عدياً شامي ، وجاسم من قرى الشام ، فلجآذرها منزل في قلبه لا يحتله غيرها .

ومن شعره المطبوع بالطابع الشامي :

فكأنني من ذكركم خالطتني من فلسطين جلسٌ خمرٍ عقارُ

عتّقت في الدنان من بيت راسٍ سنواتٍ وما سبتها التجار

وقوله :

حتى وردن من الأزارق منهلاً وله على آثارهن سجيلُ

وقوله :

فذرذا ولكن هل ترى ضوء بارق وميضاً ترى منه على بعده لمعا

تصعد في ذات الارانب موهناً اذا هز رعداً خلت في ودقه شفعا

الى ما يشابه هذه الأبيات في شعره . وهناك أبيات يلم فيها بالأحداث

السياسية التي جرت في الشام كوقعة مرج راهط التي كانت بين مروان ابن الحكم والضحاك بن قيس سنه أربع وستين وما كان من بلاء أهل الأردن الحسن مع مروان حتى قتل الضحاك وتم الأمر لمروان قال :

لولا الاله وأهل الاردن اقتسمت ... نار الجماعة يوم المرج نيرانا

وكانتصار مسلمة بن عبد الملك على الروم سنة سبع وثمانين عند طوانة قال :

وكان أمرك من أهل الطوانة من ... نصر الذي فوقنا والله أعطانا

أمراً شددت باذن الله عقدته ... فزاد في ديننا خيراً ودنيانا

مختارات من شعره

ديوان عدي بن الرقاع مفقود ، ولم يبق من شعره إلا القليل ، وهذا القليل غير مجموع في مكان واحد يمكن الرجوع اليه ، بل هو مبعثر في بطون الكتب ، لذلك فقد انصرفت مدة من الزمن أجمع كل ما عثرت عليه من شعره في كتب الأدب واللغة والتاريخ والتراجم وتقويم البلدان ، فقد أجد القصيدة من شعره مفرقة في أمكنة متعددة فأضم بعضها الى بعض ، وقد أجد أبياتاً من بحر واحد وقافية واحدة منثورة على سبيل الاستشهاد في كتب اللغة وتقويم البلدان كلسان العرب لابن منظور ومعجم البلدان لياقوت فأجتهد في ترتيبها وجعلها قطعة واحدة متتالية بعد التحري والروية . ولم أجد من شعره قصيدة كاملة في مكان واحد إلا قصيدته الدالية التي مدح بها الوليد بن عبد الملك وأولها :

عرف الديار توهماً فاعتادها ... من بعد ما شمل البلى أبلادها

فقد وردت برمتها في نهاية الأرب للنويري ج ٤ ص ٢٤٧ وشرح الكامل للمرصفي ج ٧ ص ٤٨ ومجلة الآثار ج ٢ ص ٤٤٤ .

وهاك طائفة مختارة مما جمعته من شعره :

قال :

لو ثوى لا يريمها الف حول ... لم يطل عندها عليه الثواء

أهواها يشفه أم أعيرت ... منظراً غير ما أعير النساء

وقال :

وناعمةٍ يجلو بعود أراكة ... مؤشرةً يسبي المعانق طيبها

كأن بها خمراً بماء غمامة ... إذا ارتشفت بعد الرقاد غروبها

أراك إلى نجد تحن وإنما ... منى كل نفس حيث كان حبيبها

وقال يجيب الراعي لما هجاه :

حدثت ان رويعي الابل يشتمني ... والله يصرف أقواماً عن الرشد

فانك والشعر ذو تزجي قوافيه ... كمبتغي الصيد في عريسة الأسد

وقال :

صادتك اخت بني لوذي إذ رمت ... وأصاب سهمك إذ رميت سواها

وأعارها الحدثان منك مودة ... وأعير غيرك ودها وهواها

بيضاء تستلب الرجال عقولهم ... عظمت روادفها ودق حشاها

وكأن طعم الزنجبيل ولذة ... صهباء ساك بها المسحر فاها

فاذا تجلجل في الفؤاد خيالها ... شرق الجفون بعبرة كشجاها

يا شوق ما بك يوم بان حدوجها ... من ذي المويقع غدوةً فرآها

ومنها يقول في صفة حماري وحش :

يتعاوران من الغبار ملاءةً ... بيضاء محكمةً هما نسجاها

تطوى إذا علوا مكاناً جاسياً ... واذا السنابك أسهلت نشراها

وقال :

وفي الخدور مها حورٌ مصورةٌ ... خلقن أحسن مما قال من يصفُ

إذا كررن حديثاً قلن أحسنه ... وهن من غير سوءٍ يتقى صُدُف

وقال يصف غيثاً :

مزنٌ ترفع في ريح شآمية ... مكللٌ بعماء الماء منتطقٌ
تربص الليل حتى قل سائمه ... على الرويشد أو خرجائه بدق
القى على ذات أجفار كلاكله ... وشب نيرانه وانجاب يأتلق
نارٌ تعاود منها العود جدته ... والنار تسفع عيداناً فتحترق
فما به بطن واد غب نضحته ... وان تراغب إلا مسفهٌ تثق

وقال في طول الليل :

وكأن ليلي حين تغرب شمسه ... بسواد آخر مثله موصولُ
أرعى النجوم إذا تغور كوكبٌ ... أبصرت آخر كالسراج يجول

وقال يمدح عمر بن هبيرة :

إذا شئت ان تلقى فتى البأس والندى ... وذا الحسب الزاكي التليد المقدم
فكن عمراً تأتي ولا تعدونه ... الى غيره واستخبر الناس وافهم
فتىً عزلت عنه الفواحش كلها ... فلم تختلط منه بلحمٍ ولا دم
كأن زرور القبطرية علقت ... علائقها منه بجذعٍ مقوّم
عملس أسفارٍ إذا استقبلت له ... سمومٌ كحر النار لم يتلثم
يكافح لوحان الهواجر بالضحى ... مكافحةً للمنخرين وللفم
إذا ما رمى أصحابه بجبينه ... سرى الليلة الظلماء لم يتهكم

وقال يفتخر :

نسيتم مساعينا الصوالح فيكم ... وما تذكرون الفضل إلا توهما
فان تعدونا الجاهلية اننا ... لنحدث في الأقوام بؤساً وأنعما
بلا ذاك منا ابن المعدل مرةً ... وعمرو بن هندٍ عام اصعد موسما
يقود الينا ابني نزارٍ من الملا ... واهل العراق سامياً متعظما
فلما ظننا انه نازل بنا ... ضربنا وولياه جمعاً عرمرما
ونحن فككنا عن عدي بن حاتم ... اخي طيىء الأجبال قداً محرما

وقال يمدح عمر بن عبد العزيز :

جمعت اللواتي يحمد الله عبده ... عليهن فليهنيء لك الخير واسلم
فأولهن البر والبر غالبٌ ... وما بك من غيب السرائر يعلم
وثانيةٌ كانت من الله نعمةً ... على المسلمين إذ ولي خير منعم
وثالثةٌ أن ليس فيك هوادةٌ ... لمن رام ظلماً أو سعى سعي مجرم
ورابعةٌ أن لا تزال مع التقى ... تخب بميمون من الامر مبرم
وخامسةٌ في الحكم أنك تنصف الضـ ... ـعيف وما من علّم الله كالمعي
وسادسةٌ أن الذي هو ربنا اصـ ... ـطفاك فمن يتبعك لا يتندم
وسابعةٌ أن المكارم كلها ... سبقت اليها كل ساعٍ وملجم
وثامنةٌ في منصب الناس أنه ... سما بك منهم معظم فوق معظم
وتاسعةٌ أن البرية كلهـ ... ـا يعدون سيباً من أمام متمم
وعاشرةٌ أن الحلوم توابع ... لحلمك في فصل من القول محكم

وقال في الخمر :

فكأني من ذكركم خالطتني ... من فلسطين جلسُ خمرٍ عقارُ
عتّقت في الدنان من بيت راس ... سنوات وما سبتها التجار
فهي صهباء تترك المرء أعشى ... في بياض العينين منها احمرار

وقال :

عرفت بعفرى أو برجلتها ربعا ... رماداً وأحجاراً بقين بها سفعا
فما رمتها حتى غدا اليوم نصفه ... وحتى سرت عيناي كانها دمعا
أسرعُ ما لو تفلغل بعضها ... الى حجر صلد تركن به صدعا
أميد كأني شارب لعبت به ... عقار ثوت في دنها حججاً سبعا
مقدية صهباء تشخن شربها ... اذا ما أرادوا ان يراحوا بها صرعى
عصارة كرم من حديجاء لم تكن ... منابتها مستحدثات ولا قرعا
فذر ذا ولكن هل ترى ضوء بارق ... وميضاً ترى منه على بعده لمعا

تصعد في ذات الارانب موهناً إذا هز رعداً خلت في ودقه شفما
فما تركت أركانه من سواده ولا من بياض مستراداً ولا وَقْما (١)

وقال :

لولا الحياء وان رأسي قد عسا فيه المشيب لزرت ام القاسم
يصطاد يقظان الرجال حديثها وتطير بهجتها بنوم الحالم
وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنّقت في عينه سِنةٌ وليس بنائم

هذه طائفة مختارة مما جمعته من شعر عدي بن الرقاع العاملي إذا أضيفت الى ما ورد منه على سبيل الاستشهاد ، صورت للقاريء شاعراً فحلاً من شعراء بني امية الذين يمثلون الشعر العربي الخالص .

دمشق : سنة ١٩٣٦ .

(١) الوَقْع : المرتفع من الأرض .